الفصل

5

مساعدة الأمة في حالة الحرب

بين عامي 1941 و1945، تحولت الولايات المتحدة من موقعها كدولة منعزلة إلى واحدة من الدول المنخرطة بعمق في الشؤون العالمية. في عام 1939 وحتى قبل أن تندلع الحرب العالمية الثانية، اجتمع بيتسن وميد مع بعض الأصدقاء المقربين للتفكير في الطريقة التي يمكن أن يكون فيها علم الإنسان وعلم النفس مفيدين في المجهود الحربي القادم. بعد سبعة عشرة سنة من العمل بين أناس «بدائيين» معاصرين في أمكنة أخرى من العالم، كانت ميد مستعدة للعودة إلى الوطن. وهي مقتنعة الآن أن عملها يقتضي منها توظيف ما تعلمه علماء الإنسان لحل مشاكل مجتمعها. كان هدفها الأسمى دائماً هو دراسة الناس البعيدين حتى تتعلم منهم ما تحسِّن به مجتمعها، والآن هناك ضرورة قصوى وذلك لأن الأمة غير المهيأة

للحرب قد وجدت نفسها على حافة ما ستكون حرباً عالمية.

أعطاها التهديد بالحرب مجالاً أوسع للتفكير فأخذت تسأل: «كيف يمكن تنظيم مجتمع لا يكون فيه للحرب مكان؟» وهل بإمكان علماء الاجتماع أن يسهموا في مجهود الحرب؟ وهل يمكن إيجاد طرق تسرِّع عملية الاتصال بين وكالات الحكومة؟ هل يمكن إعطاء نصيحة لحكومتهم عن كيفية التعامل مع الحلفاء ومساعدتها على تحليل الأمم العدوة؟

وهل بإمكانهم مساعدة الحكومة في خطط الإغاثة، وإعادة الإعمار، وتنظيم العالم بعد الحرب؟

شكل علماء الإنسان من حول ميد وبيتسن مجموعة أطلقوا عليها اسم «مجلس العلاقات الثقافي» وقاموا بعرض خدماتهم على الحكومة. ذهبت ميد أيضاً لتعمل لدى الحكومة بعد قيام اليابانيين بقصف بيرل هاربر في ديسمبر من عام 1941. بناءً على اقتراح من رث بندكت، قبلت ميد العمل كمديرة تنفيذية للجنة العادات الغذائية في المجلس الوطني للأبحاث وهي منظمة للعلماء. أخذت ميد إجازة من المتحف وغادرت إلى واشنطن لتتردد على نيويورك في عطل نهاية الأسبوع، لتكون مع زوجها وابنتها.

كانت ميد وزوجها بيتسن شغوفان بابنتهما الصغيرة ماري كاثرين، فقد التقطا لها الكثير من الصور وصورا لها

العديد من الأفلام ودوّنا عنها ملاحظات جمة بينما كانت تكبر. إلا أنهما كانا مشغولين بوظائفهما وأعمالهما، مما استدعى أن يوظفا عندهما مربية إنجليزية تدعى هيلين بوروز التي كانت أماً لصبي في الرابعة عشر من عمره. ستتحمل الآن هيلين بوروز الحصة الرئيسية في رعاية ماري كاثرين. هذا بالإضافة إلى أن ميد قد عملت أيضاً على خلق عائلة ممتدة لطفلتها. عندما بلغت ماري كاثرين السنتين من عمرها، انتقلت العائلة لتعيش في الطابق الأول من منزل ريفي يملكه لورنس وماري فرانك في شارع بيري في قرية غرين ويتش. كان لورنس فرانك عالم اجتماع وهو الذي خطط للمؤتمرات في مؤسسة روك

غريغوري بيتسن وهو يلاعب طفلته، ماري كاثرين.

فيللر. جمع هذا السكن علماء نفس، وعلماء إنسان واجتماع، ومحللين نفسيين، وجماعات عاملة، وكان هؤلاء الناس هم الذين استمتعت ميد بصحبتهم. كان باستطاعة ميد التحدث مع لورنس فرانك حول مسائل مهنية، بينما كانت ماري كاثرين تكبر تحت أنظار ماري فرانك الشابة والحنونة. كانت ميد تعتقد أن البيوت الكبيرة المركّبة هي بيئة جيدة للأطفال.

تتلخص وظيفة ميد كمديرة للجنة عادات الغذاء من أجل تحسين الحالة الغذائية للأمريكيين ومساعدتهم كذلك على ترشيد الغذاء، وتقبل نظام الغذاء الصارم المطلوب في وقت الحرب. كانت إمدادات بعض الأغذية مثل اللحوم والزبدة والسكر تصل بكميات قليلة خلال الحرب، لذلك كان لابد من ترشيد الكميات المقدرة لكل بيت. سألت ميد نفسها ومساعديها: «كيف يمكن للأمريكيين أن يقتنعوا بقبول هذه الحصة الإجبارية من الغذاء؟».

في عام 1923، شكلت فريقاً مع كيرت ليوين عالم النفس المعروف في جامعة إيوا للقيام بسلسلة من التجارب على تغيير العادات الغذائية. استعانوا بجمعيات الأحياء السكنية ليجعلوا الناس يتطلعون على كيفية تحمل جيرانهم القلة والنقص. حاولوا إيجاد الحلول لبعض المشاكل مثل إلى أين ترسل الطماطم الزائدة؟ وهل من الممكن صناعة رقائق البسكويت من بقايا السمك وسمك

الرنكة، ومعالجتها لسحب الزيت وإزالة رائحة السمك منها؟ هل يمكن أن يقتنع الأمريكيون بتناول حبات الصويا التي تشكل مصدرا ممتازا للبروتين؟ هل بالإمكان إقناع الناس الذين يعتمدون في تغذيتهم الرئيسة على الأرز بأن يستبدلوا به الطحين الأبيض؟ وماذا سيحدث للعائلات وللحياة العائلية لو قدمت الوجبات في المصانع والمدارس؟

وأسئلة أخرى بشأن إرسال معونات غذائية إلى أوروبا مثل ماذا يريد الأوروبيون أن يأكلوا؟ كانت اللجنة تعقد اجتماعاتها على مدى يومين مرتين شهرياً لتحاول الإجابة على هذه التساؤلات. سافرت ميد في أرجاء الولايات المتحدة تزور الباحثين الذين يعملون في لجنتها وتتحدث مع كل أصناف الناس حول عاداتهم الغذائية وعمّا يفضلونه. للمرة الأولى في تاريخ مهنتها تكون العينات التي تدرسها هي كل رفقائها الأمريكيين.

إن سمعة ميد وشهرتها في استيعابها للأفكار الدقيقة شجعت الحكومة لأن تعتمد عليها في شرح موقفها فكانت غالباً ما تظهر في الجرائد وتتحدث على الراديو. تمتعت ميد بقدرة غير محدودة في استخدام وسائل الإعلام لعرض أفكارها. أصبحت ميد عنصراً مثاليا في الحوار الثقافي تستجيب لأسئلة المحاورين وقد كانت ماهرة في الاختصار الرائع والإيجاز البليغ لما كانت تريد قوله. كانت نقطتا قوتها الأعظم تكمنان في قدرتها على

جعل أفكارها شعبية، وعلى تشكيل شبكات اتصال لربط الناس المهتمين في ذات الأفكار ببعضهم بعضاً.

في إحدى رحلاتها في الولايات المتحدة، زارت أخصائيتي تغذية شابتين تدرسان أنماط الغذاء في قرية جورجيا الصغيرة. لم تبال ميد بإعجابهما بها إلا أنها في الوقت نفسه لمحت لهما أنهما إذا أرادتا وصفها أنها أعظم امرأة في علم الإنسان فإنها تفضل أن تحذفا كلمة «امرأة». قدمت لهما نصائح مفيدة في كيفية عمل البحث، فقد تشككت في الأساليب الإحصائية والكمية. أخبرتهما أنهما تستطيعان معرفة ما تشاءان من شخص واحد إذا هيمنتا عليه بشكل مكثف وكبير. اقترحت عليهما أنه من الأفضل لهما التكلم مع شخص واحد أربعة عشرة مرة من التحدث إلى أربعة عشر شخصاً مختلفاً. تركت زيارة ميد المرأتان في حالة ابتهاج لكنهما كانتا متعبتان، وكان هذا الأثر الذي كانت ميد تتركه على الناس، فقد كان من الصعب التواصل مع طاقتها وفضولها وسرعة بديهتها بشكل كامل.

استمتعت ميد بالاهتمام ببلدها فأخذت إجازة مدّة ثلاثة أسابيع من العمل الحربي وذلك في صيف عام 1942 لتؤلف كتاباً عن أمريكا سمته «احفظ البارود جافاً». كانت ميد وطنية جداً وفخورة لكونها أمريكية، وقد أرادت مساعدة أمتها لكي تفهم نفسها بشكل أفضل. كانت تناضل من أجل هدف وهو الحرية. اقتبست عنوان كتابها

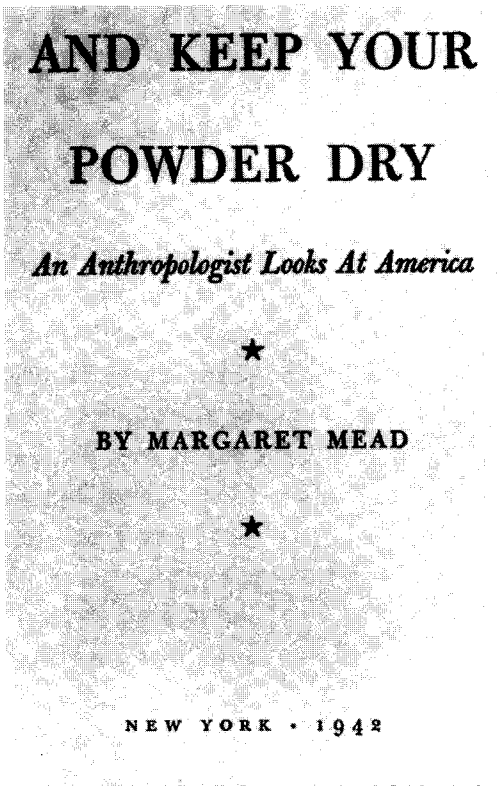

في (احفظ البارود جافاً) استخدمت ميد عين الناقد في تعاطيها مع الثقافة الأمريكية.

من مقولة مأخوذة من الإنجليزي البيوريتاني أوليفير كروميل، «ثق بالله واحفظ البارود جافاً» وهو ما يعني الاستعداد الدائم للحرب.

انتقد بعض علماء الإنسان هذه المحاولة الرائدة؛ وذلك لأنها أرادت وصف ثقافة حديثة معقدة في كتاب واحد، إلا أن عامة الناس أحبوا الكتاب.

أبرزت ميد فيه نقاط القوة والضعف التي رأتها في الولايات المتحدة وتفحصت رغبة الأمريكيين في الاعتقاد أنهم دائماً في الجانب الصحيح، وقالت أن الأمريكيين يضعون كل شيء في ميزان واحد، فهم يسألون إذا كانت هناك أساليب أفضل أو أسوأ من أساليبهم، وفيما إذا كانت أفضل فيقلدوها بينما يميل الإنجليز في الجانب الآخر ليختاروا التعقيد والتفرد في أي موقف. بالنسبة للإنجليز، فإن الأساليب أو الطرق الأخرى في القيام بالأشياء هي مختلفة وليست قضية أفضل أو أسوأ. قارنت كذلك بين أنماط تربية الأطفال عند الأمريكيين والإنجليز؛ فبينما يدفع الأمريكيون أبناءهم إلى الأمام ويحثونهم على الاستقلالية والإنجاز فإن الأطفال

الإنجليز يكبحهم آباؤهم ليتركوهم يراقبون بهدوء أداء الكبار. كان استنتاج ميد العام استنتاجاً جاداً وذا بصيرة. اعتقدت أن العمل الأكثر أهمية الذي يواجهه الأمريكيون عند انتهاء الحرب هو بناء ثقافة واحدة من الثقافات المختلفة؛ بحيث يكون لكل موهوب مكان في المجتمع. على الرغم من تفكيرها ببلدها وبالحاجة إلى تجاوز حواجز الخلفيات الطبقية والعرقية والجنسية؛ من أجل بناء مجتمع واحد، فإنها قد أحست كذلك أن ثقافة عالمية تلوح في الأفق.

في صيف عام 1943، غادر كل من ميد وبيتسن نيويورك تاركين كاثرين ذات الأعوام الثلاث مع عائلة فرانكس. ذهب بيتسن إلى واشنطن ليرى كيف بإمكانه كعالم نفس أن يساهم في مجهود الحرب. في الوقت نفسه، أرسل مكتب المعلومات الحربية ميد إلى إنجلترا. كانت مهمتها تقتضي توضيح وإجلاء اللبس وعدم الفهم بين العساكر الأمريكيين وعشيقاتهم من النساء الإنجليزيات في ما يتعلق بإنهاء العلاقة، حيث وجدت أنه بينما يتوقع الرجال الأمريكيون من شريكاتهم النساء أن يضعن حداً للعلاقة، فقد اعتادت النساء الإنجليزيات على توقع أن يقوم الرجال بوضع هذه الحد. بالنتيجة لم يضع أحد هذا الحد، وبدأ كل واحد ينظر إلى شريكه أو شريكته على أنه غير أخلاقي. على الرغم من كون هذه مسألة شخصية، إلا أن مثل هذه المسائل الخاصة أضحت محور قلق للحكومة في وقت الحرب؛ لأنه كان من الضروري

للأمم المتحالفة أن تعمل في انسجام، وبالأخص الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى.

لم يكن اهتمام ميد بإنجلترا والإنجليز من أجل أهداف مهنية فقط بل ولأهداف شخصية أيضاً. رحبت بهذه الفرصة من أجل التعرف أكثر عن بلد زوجها، ولتستمتع في بعض الأحيان بتسوية سوء الفهم الثقافي الحاصل بينهما. أعجبتها جداً المقارنة بين الأسلوب الأمريكي والإنجليزي الموجودين في زواجها، والآن لديها الفرصة لتحليلهما بشكل كامل. فعلى سبيل المثال، لاحظت أنه في إنجلترا الزوج هو المسؤول عن تخطيط الحياة الاجتماعية، بينما في الولايات المتحدة، الزوجة هي من يفعل ذلك. هذا يعني أن الزوج الإنجليزي مع الزوجة الأمريكية ستكون مخططاتهما على الأرجح متضاربة، بينما إذا كانت الزوجة إنجليزية والزوج أمريكياً فإنهما سيتخبطان دون أي ترتيبات اجتماعية. رجعت ميد إلى واشنطن بينما كان بيتسن يغادر إلى سيلان والهند وبورما والصين، حيث أرسل إلى هناك من قبل (مكتب الخدمات الاستراتيجية، خدمة المخابرات الأمريكية أو.إس. إس). ليعمل في الحرب النفسية. كانت مهمته الدعاية والمعلومات التي تدمر معنويات العدو. أدار بيتسن لفترة من الوقت محطة إذاعة في بورما ثم قام لاحقاً ببحث ميداني حقق له رضاً كبيراً عن نفسه. قام فيه بدراسة ردة فعل المواطنين على الاحتلال الياباني لبورما، والاحتلال الإنجليزي للهند. وقد مكث في رحلته حوالي السنتين.

تابعت ميد حياتها في واشنطن، وكالعادة كانت تذهب إلى نيويورك في إجازات آخر الأسبوع لتقضيها مع ابنتها. استمرت في العمل في لجنة العادات الغذائية وكانت تعطي دورات قصيرة عن جنوب الهادئ للجنود المتوجهين عما قريب إلى هناك. ثم أخذت تفكر مع رث بندكت حول كيفية استفادة العالم ما بعد الحرب من علم الإنسان . وفي عام 1944، أنشأت ميد منظمة لمساعدة علماء الإنسان الشباب المهتمين بتطبيق منهج ثقافي مثل منهجها على المشاكل العالمية بإعانتهم مالياً. أطلقت عليه اسم «معهد الدراسات الثقافية». في البداية، كان محسنون سريون يمولون المعهد ثم بقيت ميد تموله من دخلها الذي تكسبه من خطبها وكتبها لبقية حياتها. أدى العمل الذي قامت به ميد مع علماء الإنسان الذين عملوا معها إلى تطوير برنامج سمي بـ «دراسة الثقافة عن بعد» حيث وجد العلماء أن الدول أو الثقافات المعزولة لأسباب سياسية، أو نتيجةً للحرب، يمكن دراستها عن بعد، بإجراء مقابلات مع اللاجئين القادمين من هذه الثقافات، ومن خلال الأفلام والروايات والسير الذاتية والفنون وأساليب تربية الأطفال، ومواد أخرى. وقد أمضت رث بندكت سنوات الحرب وهي تعد تقارير في علم الإنسان عن الأمم المتحالفة والعدوة باستخدام هذه الوسائل فقط.

كانت إحدى النتائج العملية لهذا العمل هي النصيحة التي قدمت عند نهاية الحرب العالمية الثانية، وذلك أن

شروط استسلام واحتلال اليابان تختلف عن تلك المفروضة على ألمانيا النازية. ففي اليابان، كان إيمان الشعب بالإمبراطور الياباني قوياً جداً، لذلك لا يتوجب عزله لأن ذلك سيؤدي إلى مقاومة باسلة قوية. تم العمل بهذه النصيحة فعندما انتهت الحرب في عام 1945، قبلت الولايات المتحدة كشرط لاستسلام اليابان أن يسمحوا للإمبراطور باستعادة عرشه. أصدر الإمبراطور بيان الاستسلام، وتلاه على شعبه وحثهم على «قبول غير المقبول». وبما أن الإمبراطور قد قبل شروط الاستسلام، فقد قبله الشعب.

بعد الحرب حولت ميد وبندكت دراستهما من الثقافة عن بعد إلى تقديم اقتراحات لتوجيه بحوث الثقافات المعاصرة. تمت الموافقة على إنشاء مكتب البحوث البحرية عام 1947 وتمويله بمبلغ مئة ألف دولار، وقد اتخذت المكاتب الرئيسية في البداية في جامعة كولومبيا حيث كانت رث بندكت تعمل كأستاذة مساعدة، ثم أصبحت لاحقاً في مكتب ميد في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي. وظفت ميد وبندكت مئة وعشرين شخصاً ليعملوا كعلماء إنسان، ويقابلوا لاجئين من الصين والاتحاد السوفيتي وفرنسا، وتشيكوسلوفاكيا وسوريا وبولندة، وأوربا الشرقية.

أصبحت الأبحاث حول الثقافات المعاصرة جزءاً من فرع جديد لعلم الإنسان سمي بـ «الثقافة والشخصية» وهو

المجال الذي عملت فيه ميد منذ الثلاثينيات. وجدت ميد وآخرون أن كل ثقافة أو حضارة تنتج نمطاً خاصاً للشخصية من خلال ممارستها المتبعة في تربية الأطفال، والروح الثقافية العامة. استخدم علماء الإنسان كل نظرياتهم في علم الإنسان وعلم النفس وعلم الأمراض العقلية، والأبحاث عن تطور الأطفال ليتمكنوا من تحديد بنية الشخصية السائدة والشخصية الثقافية المميزة. أكثر الدراسات حول الشخصية الوطنية شهرة كانت دراسة عن اليابان أجرتها رث بندكت وسمتها «الأقحوان والسيف» وقد نشرت عام 1946. بدأت رث هذه الدراسة عندما كانت تعمل لدى الحكومة خلال الحرب وأنهتها في ما بعد دون أن تعرف اللغة اليابانية، حتى دون أن تزور اليابان.

وأكثر الدراسات إثارة للجدل كانت «نظرية القماط» التي طرحها جيفري جورير وهو عالم إنسان إنجليزي أصبح صديقاً جيداً لميد. كتب جورير خلال الحرب مذكرة عن «بنية الشخصية اليابانية والدعاية». قام بنشر هذه المذكرة بعد الحرب وقد اقترح فيها أن الروس قد كبروا ليصبحوا متشككين ومستبدين لأنهم كانوا مقمطين بإحكام، مثلما يقمط الطفل الرضيع في ثيابه. هذا «القماط» أدى إلى خلق مشاعر من اليأس والإذعان الذي بدوره يولد الإحباط والغضب. هذا ما فسر الفكرة الروسية أن القيود لا تطاق إلا أنها في الوقت نفسه ضرورية لأن الإنسان يتمتع بقدرات هائلة حيث لابد من القيود التي

تمنعه من تحطيم الأشياء. رأى النقاد في هذه المذكرة تحليلاً بسيطاً جداً لمجتمع معقد، وأنه يشوه صورة علم الإنسان بأكمله. إلا أن ميد أوضحت أن هذه الفكرة لا تعني أن القماط هو الذي يحدد الشخصية الروسية؛ ولكنه إحدى طرق تمرير النمط الثقافي للأطفال.

قامت ميد بالعديد من الرحلات لإلقاء المحاضرات حول عملها. وقد استمتعت في تحدي جمهورها وقد كانت غالباً ما تدهشه بتصريحات مثيرة للجدل وأحياناً مغضبة.